الحضور الفينومنولوجي ضمن التفكيك

أ. وهيبة يحياوي

مخبر الفلسفة وتاريخها- جامعة وهران 2

تعتبر الفينومنولوجيا من أهم المقاربات فلسفية المعاصرة و التي عرفت انفتاحا كبيرا على تاريخ الفلسفة ،لقد كان تفكير هوسرل في الفينومنولوجيا كعلم كلي وليد وعي بأزمة معرفية و منهجية عرفتها العلوم الأوروبية ،وخصوصا العلوم الإنسانية و الفلسفة،و دعوة لمراجعة الأسس التي تقوم عليها موضوعية العلوم و التأسيس جديد لشروط العلم.

أفضت بحوث هوسرل إلى ضرورة العودة إلى الوعي و الانتباه إلى أفعاله من خلال تجربة المعيش،عرفت الفلسفة بعد التأسيس المعرفي و المنهجي الهوسرلي منعطفا حاسما جعل التفكير الفلسفي ، ينفتح على قضايا الذات و الوجود ضمن العالم ،و مسائل المنهج ،لقد استثمر تلامذة هوسرل الإرث الفينومنولوجيا و بلوروا بحوثه لتتخذ الفينومنولوجيا صيغة التعدد من هايدغر ومرلو بونتي وصولا لليفناس.

إن الحديث عن فينومنولوجيات يستدعى طرح قضية المنهج الفينومنولوجيا أو الأسلوب الفينومنولوجي المميز للتفلسف ضمن هذا التوجه ،هذا ما سنحاول تقصيه من خلال تناول كيفية حضور الفينومنولوجيا ضمن مقاربة دريدا التفكيكية، باعتبار أن الفنومنولوجيا الرافد تكويني الأساس لدريدا، في معالجته لمسائل قراءة التراث الغربي الميتافزيقي. بناءا عليه نقارب التساؤل التالي:ما هي الرؤية التي أسستها الفنومنولوجيا بخصوص الميتافيزيقا ؟بأي قدر يمكن اعتبار المنهج الفينومنولوجي حاضر ضمن استراتيجية التفكيك؟ و إلى أي مدي يمكن الحديث عن مابعد فينومنولوجيا عند دريدا؟

ـ الفينومنولوجيا و الموقف من الميتافيزيقا:

تجديد الميتافيزيقا منذ ثلاثة عقود هو حدث كبير غير جذريا الواقع الفلسفي ولا تزال هذه الإشكالية مطروحة في الواقع الفلسفي المعاصر،مراجعة الميتافيزيقا قائم على رؤية و على منهجلقد ساهمت الفينومنولوجيابإيجابيةفي النقاش دون إقصاء لأي ميتافيزيقا أو فلسفة تحليلية. في احداث منعطف حاسم ضمن إشكالية المعرفة و مراجعة الرؤية الميتافيزيقية.

لقد تميزت الفلسفة المعاصرة برفض شبه مجمع للميتافيزيقاعبرت عنه الفلسفات التحليلية بصورة واضحة من خلال اعتبار القضايا و الأسئلة الميتافيزيقية خالية من المعنى الواقعي،كما ان فينومينولوجيا هوسرل و هيدغر ذاتها ،وجهت ضد الميتافيزيقا ،و تم فهم الفينومينولوحيا كمسائلة للميتافيزيقا الترسندنتالية.[1]

1 Denise SERON, métaphysique phénoménologique, revue Bulletin d'analyse phénoménologique université de Liège, volume 2 numéro 2 mars 2006, p4 .

كيف يتحدد الموقف الفينومنولوجي من الميتافيزيقيا؟

نسعى من خلال هذا السؤال لإجلاء الرؤية الفينومينولوجية للميتافيزيقا،انطلاقا من المسلمة التالية ترجع الرؤية الفينومنولوجيا النقدية للمعرفة و العالم إلى المشروع الكانطي النقدي المتفحص لشروط المعرفة.

لقد استعاد هوسرل بدوره التصور الكلاسيكي للميتافيزيقا كنظرية للأشياء بصفة عامة ،واعتبرها ضرورة الفلسفية، على الفلسفة ان تكون الميتافيزيقا بامتياز.ما يعنى أن الفينومنولوجيا ليست منهجا فلسفيا مالم تصبح فلسفة فينومنولوجية ،بعبارة أخرى إلا في اطار مشاركتها في الميتافيزيقا ،نظرية عن وجودالأشياء،دون ذلك تبقى الفينومينوجيا علم الوعي بالمواضيع النفسية.

بعد ذلك أسس هوسرل للتمفصل بين الفينومنولوجيا و الميتافيزيقا في استمرارية للمشروع النقدي الكانطي. يتعلق الأمر قبل كل شيء بتأسيس الميتافيزيقا،وهذا مشروط بضمان بشكل قبلي إمكانية و صلاحية على الأقل نقد للمعرفة.

مشروع التأسيس القبلي لشروط المعرفة عند كانط قائم على النقد ،يعتبركانط ان الفيلسوف يبقى دوغمائيا وقتا طويلا إذا لم يتساءل حول شروط المعرفة الميتافيزيقية ،إذا لم يطرح السؤال: كيف تكون للأحكام التركيبية القبلية ممكنة؟ ليس هذا التساؤل يعبر عما سماه كانط النقد. إن ما يقابل الميتافيزيقا الدوغمائية بالنسبة لكانط ،ليس هو لا ميتافيزيقا أو ضد ميتافيزيقا و إنما ميتافيزيقا مؤسسة على النقد،مسبوقة بنظرية المعرفة، يقول كانط في مقدمة «نقد العقل الخالص:»النقد هو التحضير المؤقت الضروري لتقدم الميتافيزيقا».[1]

وجهة النظر الكانطية هذه نعتبرها مسلمة غير قابلة للتجاوز في فينومينولوجيا هوسرل ،ليست المسلمة التي تبناها هوسرل بعد المنعطف الترسندنتالي فحسبو إنما هي وجهة نظر «البحوث المنطقية»الكتاب الذي يشكل الجزء الأكبر من نظرية المعرفة،حيث كان الهدف هو تأسيس المعرفة العلمية و الفلسفية،ما يجعلنا نعتبر أن السؤال المطروح من طرف هوسرل هو من قبيل السؤال الكانطي عن امكانية المعرفةفي مقدمة الجزء الثاني من البحوث المنطقية،يدافع عن فكرة أن نظرية المعرفة هذه يجب أن تسبق كل علم يفهم من هذا علم النفس و أيضا الميتافيزيقا. [2]

نتيجة هذا ما يسميه هوسرل la neutralité métaphysique الحياد الميتافيزيقي لنظرية المعرفة. مبدأ نظرية المعرفة ضمن «البحوث المنطقية» هو غياب أي فرض ميتافيزيقي مسبق لم يتم تفحصه نقديا ،لكن هذا لا يعنى أن الفينومنولوجيا تعارض الميتافيزيقا،الفنومنولوجيا يقول هوسرل في التأملات الديكارتية:»علينا أن نقصى الميتافيزيقا الساذجة فحسب» نفهم من هذا أنها لا تقصى الميتافيزيقا المؤسسة على نقد المعرفة ،ليتحول سؤال هو المعرفة إلى كيف نشيد ميتافيزيقا غير ساذجة؟.[3]

1 Ipd, p7

2 Ipd ,p8

3 Ipd ,p8

الفينومنولوجيا في نقدها الميتافيزيقية و اقتراحها منهج التعليق لم تسعى لإقصاء و رفض الميتافيزيقا، بعد هذا التمهيد الضروري تنفتح لنا اللحظة التساؤل ما كانت رؤية دريدا للميتافيزيقا ؟ هل يحضر التصور الفينومنولوجي ضمن موقف التفكيك من الميتافيزيقا ؟ و هل يمكن الحديث عن خلفية منهجية الفينومينولوجية للتفكيك؟

من المسلم أن الفينومنولوجيا كانت رافدا أساسيا في تكوين دريدا ،لقد ساهم دريدا في بدايات تكوينه بترجمة و تقديم عمل هسرل «في أصل الهندسة» سنة 1967.

بالعودة للمشهد الفلسفي الفرنسي المعاصر لا يظهر على ما يبدو في الفلسفة أي توافق أو وحدة موقف بخصوص الفينومنولوجيا،إنه إذا تم قبول الفينومنولوجيا كمنهج قائم بالأساس على إظهار و وصف الظواهر كما تُبدى ذاتها، غير أن فهم و تصور الظاهرة يبقى محل جدل: عند ميشال هنري في باطنية الخالصة الخاصة «حميمية الأنا» تتجلي و تكمن حقيقة الظواهر،أما بالنسبة لليفناس فهي في الخارج الخالص الخاص «لأخر المطلق» ينتج كل المعنى.

كما أنه ليس هناك مفهوم مشترك للميتافيزيقا لا على طريقة كانط كتجاوز لحدود التجربة ،و لا على طريقة نيتشه و هايدغر[1].

أما بالنسبة دريدا على العكس من ليفيناس و هنري لا يعود إلى المطلق ،و مصطلح ميتافيزيقا لا يعرف عنده سوى استعمال (غير محبب) péjoratif ،لا نجد عنده أي تعريف لجوهر الميتافيزيقا على خلاف هيدغر الذي يستلهم منه. الميتافيزيقا تعرف بـ»الحضور» مأخوذا كحضور خالص المكتمل،الحضور المطلق ضمن العبارة المرددة دوما «الميتافيزيقا الحضور» وهي ترجع إلى نظام من المتعارضاتجسد/روح ،معقول /محسوس...ترجع في كلها إلى التعارض أصل /فرع.لا توجد عند دريدا نظرية للنسيان الوجود أو العمى الميتافيزيقي، لذا فإن معرفة أسباب التي يريد إنشاء نقد أو تجاوز للميتافيزيقا من أجلها تجعلنا نعود إلى المسائل التي توجه إليها نقده مباشرة،نقصد بالتحديد قضايا الحضور و الكتابة .

يرتاب دريدا في امتلاك الفينومنولوجيا لميتافيزيقا حضور بالنظر إلى كونها تعطي امتيازا أساسيا لحضور الوعى للانا.

ـ تفكيك ميتافيزيقا الحضور:

انتبه دريدا مبكرا لأزمة الميتافيزيقا من خلال قراءته لنصوص هيدغر و فهمه لرهانات التي يطرحه مشروعه، يقول: «كل ما أقوم به هو أنني أضع سؤال الوجود كحضور و هو التعيين الذي رأى فيه هيدغر قدر الفلسفة «[2]،يكشف هذا التصريح عن الاهتمام المشترك للفيلسوفين الذي لا يخرج عن الحقبة المعاصرة لمراجعة آليات الميتافيزيقا المسيطرة على الفكر بالخصوص إطلاقيه تصورات الذات ،العقل والحقيقة التي أنتجت المركزيات وولدت العنف و الإقصاء.

---

1 Michel Haar,La philosophie français entre phénoménologie et métaphysique ,presse universitaire de France ,1999, p1

2 - دريدا_مواقع_نقلاعن:الفروي على الحبيب_نقد العقل الميتافزيقي_ دار الفارابي_ط1_بيروت_لبنان _ص83

تتكأ الميتافيزيقا عبر تاريخها على سند الحضور باعتباره تجليا متماسكا غير قابل للمسائلة «حضور الموضوع بوصفه جوهرا ومثالا Eidos ،الحضور بوصفه جوهرا و ماهية (كائنية)Ousia ،الحضور الزمني بوصفه آن و لحظة Nunc ،الحضور الذاتي و الوعي للانا أفكر Cogito ،الحضور معا للذات و الآخر البينذاتية كحضور قصدي للاناEgo»[1]، تلك المحطات فتح دريدا نقاش مع أكبر فلاسفتها أفلاطون ديكارت هوسرل من خلال نصوصهم الكبرى لكشف آليات تقوّمها ،إن التحديدات التي تقف على معنى الحضور باعتباره ضمان التماسك الذي تقف عليه تصورات الوجود و الحقيقة، تحتاج إلى خلخلة لكشف المركزية التي تنشئها.

يتأسس مشروع دريدا النقدي التفكيكيّ على نقد المركزية بتفحص منظومة الخطاب الفلسفي الغربيّ عبرتاريخه الممتد، ومناقشة الخصوصية معينة في كلّ لحظةٍ من لحظاته ،التفكيك هو مصطلح نحته دريدا في كتابه الغراماتولوجيا La grammatologie سنة 1967 كطريقة جديدة لقراءة النصوص ،تحديدا نصوص المُؤسسة للتقليد الفلسفي الميتافيزيقي الغربي ،يعمل التفكيك على تأزيم الفرضيات المسبقة التي يحملها النص، وكذا العناصر الإجرائية الأكثر عمقا في بناء التقليد الفلسفي ،المتمثلة أساسا في تثمين ميزتي الحضور La présence و الوضوحLa clarté بجانب مفهوم الحقيقة ،و التي تؤسس لتراتبيات :الحضور/الغياب، الوجود /العدم، الصحيح/الخطأ،[2] وتعتبر الثّنائيّات الميتافيزيقيّةالتي شكلت متعارضات حكمت تاريخ الفكر الغربي : واقع/مثال مومان/ فينومان ،أهم الممارسات التي يستهدف التفكيك بعملية القلب و الخلخلة للخروج من فضاء التعارض و نظام ذاته[3]،يقول دريدا :»في التعارض الفلسفي التقليدي لسنا أمام تعايش للطرفين المتقابلين بل أمام تراتبية قامعة ،إذ يهيمن أحد الطرفين على الأخر قيميا و منطقيا.»[4] تفكيك الخطاب هو إظهار كيفية تساقط الأسس القائم عليها ،و ذلك بتعيين ماهية العمليات البلاغية و المنطقية التي يبنى عليها حجاج النص ،بغرض إبطال فكرة الأصل أو الأسبقية المنطقية و القيمية وامتياز الحضور الذي للطرف الأول في الثنائية.

قضية التفكيك هذه استدعت ممارسة استراتيجية قراءة خاصة لطالما تمنع دريدا عن تعريفها أو تحديد معالمها كمنهج قائم على قواعد محددة تتبع للوصول لنتائج معينة ،ذلك أن لم يكن دريدا صديقا للمفاهيم ،يصرح في «رسالة لصديق ياباني» أن تعريف التفكيك أمر غير ممكن و أن كل عبارة من قبيل التفكيك هو كذا أو ليس التفكيك كذا هي عبارة غير صائبة، و أن كل تعريف للتفكيك قابل للتفكيك،حيث يمكن القول أنه كل يسعى لبلورت ارتيابخصوص كلمات ومفاهيم ويقينيات.[5] ،غير أن بعض القراءات المعاصرة تسعي للتماس خطوط منهجية ضمن الممارسة التفكيكية كتلك التي ترد الفعل التفكيكي المفتوح إلى الإيبوخي الهوسرلي أخرى تربطه بالهرمنيوطيقا لتجعل منه أسلوبا تأويليا خاصا .

1 دريدا الكتابة و الإختلاف نقلا عن: جونثانكلر تر حسام نايل _التفكيك_ مجلة فصول_العدد66_ربيع2005 الهيئة المصرية العامة للكتاب_مصر_ص93

2 Gand dictionnaire de la philosophie ,direction de Michel BLAY,La rousse CNRS, p249

3 Les notions, PUF, p557

4 جونثانكلر_ المرجع السابق ص89

5 دريدا جاك ،استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، تر:عز الدين الخطابي ،أفريقيا الشرق 2013 ،الدار البيضاء المغرب ،ص 5.

ـ التعليق الفينومنولوجي و التعليق الجذري:

هذا المنظور الذي يربط التفكيك الفينومنولوجياعلى مستوى المنهج، يعتبر لحظة التعليق La suspensionميراث التقليد الفينومنولوجي،والتعليق الفعل الأكثر جذرية و حسما في الفينومنولوجيا ،لأن هذا الفعل هو المدخل لممارسةالتفكير للفينومنولوجي. يعد دريدا أكثر حاملي هذا الميراثالفينومنولوجيا مفارقة،هذا الوريث المقاطع سيأسس لتقليد الانتماء المستقل للفينومنولوجيا.

هذا التعليق للفينومنولوجيا يظهر بطرق متعددة كايبوخي الفينومنولوجي الهوسرلي ، الإيبوخي الوجود الهيدغري،كايبوخي يعلق الوجود في حد ذاته، و ستصبح الإيبوخي اسما آخر للاختلاف عند دريدا.[1]نريد أن نوضح أن الإيبوخي هو من أسماء الاختلاف ،اسم ليس فقط يرسى تقليدا للفينومنولوجيا ،و إنما خاصة مستقبلا ،و وحده المستقبل يمكنه ارساء تقليد ،يمكنه ضمان انطلاقه و استرجاعه المستقبل مقاطعة التقليد، المقاطعة في حد ذاتها ترسي التقليد و تأسسه،إن التقليد يتأسس في مستقبله.

«الإيبوخي هو التفكيك» إنها أطروحةتفترض أن أسلوب التفكيك بالأصل هو التعليق الإيبوخي ،حيث القدرة التفكيك تكمن تعليق أي أطروحة، سنحاول تعميق هذه الرؤيةمن «لحظات» اللامقرر suspens التي تفتحها نصوص دريدا.[2]ايبوخي يظهر بين قوسين دائما لحظة أو تعليق الحكم ،أما «الأسلوبالتعليقي الإيبوخي» الديريدي هو محاط بضفرين تعلق معناه الفينومنولوجي ،فهو يتشكل من سلسلة غير منقطعة من اللحظات التعليقية ، و لحظة التعليق التي هي ، تعليق للحظة ذاتها نفهم «اللحظة» كفترة أو زمانية مؤقتة و التعليق يتضمن دلالة الإرجاء différance،هذا الإرجاء المستمر هو ما يمنح إمكانية التفكيك يقول دريدا:»هنا لحظة تعليق،وقت الإيبوخي،و بدونه في الواقع لا وجود لإمكانية التفكيك»[3]

إمكانية التفكيك ليست مجرد إمكانية مقولية أو منطقية،لأن إمكانية التفكيك هي ما يحدثه،و حدث التفكيك لا يعلق فعل التعليق ،بل يبقي عليه حاضرا كإمكانية، فالإيبوخي لا يختفي بعد اتمامه كخطوة منهجية ، بإمكانية منطقية أو في كون ما هو واقع نفيا ممكن أو لم يعد ممكنا كونه قد تحقق،و الممكن أصبح ماضيا،تم تجاوز من خلال تحققه،هنا حدث التعليق لا يعلق فعل التعليق الذي يبقى متحققا.[4]

الهدف من الأسلوب التعليقي الديردي هو الإبقاء على التعليق ،الذي بتعلقه يختفي الحاضر الفعلي مع الإبقاء عليه،و معنى مع الإبقاء عليه هو الإبقاء على حاضر مكتمل الذي هو لم يوجد أبدا في الواقع ، اللحظة تفيض على منطق الحضور المحدد في الحضور المكتمل الغير معلق، كمعطى للإيبوخي التفكيك

1 Vincent Houillon,La suspension de la phénoménologie :la déconstruction, collège internationale de philosophie2002 /1 n 35 , p29 .

2 Ibd,p30

3 Ibd,p31

4 bd,p32

هو ما هو معطى من لحظة التعليق.[1]الإيبوخي تعليق الزمن (الإرجاء la déffirance) ،و لفكر الوقتية la temporalisationكحضور واكتمال ،يعود التفكيك إلى الإيبوخي الذي يعلق كل خطاب و يمنعه من أن ينهي ذاته(ينغلق)،امكانية ممارسة التفكيك.

لكن كايبوخي أليس بعد فينومينولوجيا؟ألا تتجاوز الفينومنولوجيا حدودها التقليدية؟ هي أسئلة يعاود دريدا طرحها في قراءته لميتافيزيقا الفينومينولوجية من خلال ممارسات التعليق الجذري.

لقد كان المنعطف الذي أحدثته الفينومنولوجيا رؤية و منهجا حاسما بشكل جعل طرح أسئلة المعرفة و الأنطولوجيا بعد الفينومنولوجيا يغير حتى المفهوم المرحلي لما بعد ذلك أن التفكير ضمن الأفق النقدي الفينومنولوجي متعدد الإمكانات،وتعتبر الممارسة التفكيكية وريثا لو بصفة «غير وفية» للتقليد الفينومنولوجي،تجعل من «مشروع نقد الميتافيزيقا بواسطة استعادة الكتابة و وضعها الفلسفي عند دريدا مشتبك اشتباكا حميما بتأويل البنية الميتافزيقية لفينومنولوجيا هوسرل»[2] بدرجة جعلت الباحثين يرون أن الأفقالمابعد فينومنولوجي،والقراءات المعاصرة للفينومنولوجيا لايخرج الأسلوبالفينومينولوجية ذاته.

1 bd,p33

2 دريدا جاك،الصوت و الظاهرة ،تر فتحي إنقزو ،المركز الثقافي العربي ،ط1 2005،المغرب،ص8